

أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للارث بالحلف والاخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً ، وعلى هذا فتشمل ذوى الارحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتاج بأدلة من أقواها حديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً والله أعلم

آخر تفسير سورة الأنفال والله الحمد والمنة وعليه السكّان وهو حبسنا ونعم الوكيل

(تفسير سورة التوبة مدنية)

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْبُدُوا
أَنْفُسَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال سمعت البراء يقول آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يبسم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة في أولها في المصحف الإمام بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد ابن أبي جعفر وابن أبي عمير وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبي جميلة أخبرني يزيد الفارسي أخبرني ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين وقرتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منهن فأن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرق آخر عن عوف الأعرابي به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكرم مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى في الناس (براءة من الله ورسوله) فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له كما سيأتي بيانه فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) أى هذه براءة أى تبرؤ من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً فقال قائلون هذه الآية لدوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) الآية ولما سيأتي في الحديث . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروى عن الكلبى ومحمد بن كعب القرظى وغير واحد . وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاءوا وأجل من أجل من ليس عهد انسلخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم

أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيه السيف أيضا حتى يدخلوا في الإسلام وقال أبو معشر المدني حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية وأربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلبهم عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (براءة من الله ورسوله) إلى أهل العهد خراعة ومدج ومن كان له عهد أو غيرهم فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ثم قال : « إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل أبا بكر وعليا رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذى الحجاز وبأمكنهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا وهكذا روى عن السدي وقادة وقال الزهري : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى .

﴿ وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ وَابِعْتُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى وإعلام (من الله ورسوله) وتقدم وإنذار إلى الناس (يوم الحج الأكبر) وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعا (أن الله برىء من المشركين ورسوله) أي برىء منهم أيضا ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال (فإن تبتتم) أي مما أتم فيه من الشرك والضلال (فهو خير لكم ، وإن توليتتم) أي استمررتم على ما أتمت عليه (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) ، بل هو قادر عليكم وأتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أي في الدنيا بالجزى والنكال وفي الآخرة بالمقاصع الأغلال ، قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال حميد ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة : قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر براءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ورواه البخاري أيضا حدثنا أبو الهيثم أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله (براءة من الله ورسوله) قال لما كان النبي ﷺ زمن حين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر علي تلك الحجة قال معمر : قال الزهري وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر قال أبو هريرة ثم أتبعنا النبي ﷺ عليا وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته . وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن الأسيد فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة براءة فقال : ما كنتم تتنادون ؟ قال كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى عليه وسلم عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادي حتى صجل صوتي ، وقال الشعبي حدثني محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي فكان إذا صجل ناديت فقلت بأبي شيء كنتم تتنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهدته إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك . رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به إلا أنه قال : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث . قال ابن جرير وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار متضاربة في الأجل بخلافه .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه براءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال « لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي » فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سلمان حدثنا لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة علي النبي ﷺ دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال « أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فادهب إلى أهل مكة فاقرأهم عليهم » فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله ، نزل في شيء ؟ فقال « لا ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك » هذا إسناد فيه ضعف ، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبينا في الرواية الأخرى . وقال عبد الله أيضا حدثني أبو بكر حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه براءة قال يابني الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال « لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت » قال فإن كان ولا بد فسأذهب أنا ، قال « انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك » قال ثم وضع يده على فيه . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ رجل من همدان سألتنا عليا بأبي شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة قال بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهدته إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ، ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ، ورواه شعبة عن أبي إسحق فقال زيد بن أثيل وهم فيه ، ورواه الثوري عن أبي إسحق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه .

وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الأعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال أمرت بأربع فذكره ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ قال نزلت براءة رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليا فأخذها فلما رجع أبو بكر قال نزل في شيء ؟ قال « لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي » فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى مدته وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر

محمد بن علي بن الحسين بن علي قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وفد كان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس فقيل يارسول الله : لو بعثت إلى أبي بكر فقال « لا يؤدى عنى لإرجل من أهل بيتي » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان : ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ - فهو له إلى مدته » فخرج علي رضي الله عنه على ناقه رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن بالناس بالنهي أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطوف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا أبو زرعة وعبد الله بن راشد أخبرنا حموية بن شريح أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول : سألت عليا عن يوم الحج الأكبر فقال إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال قم يا علي فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقممت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبت أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال يوم عرفة ، فقلت أمن عندك أم من عند أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال كل في ذلك وقال عبد الرزاق أيضا عن ابن جريج عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وقال عمرو ابن الوليد السهمي حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . قال فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا سعيد بن المسيب فأتيته فقلت إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة فقال أخبرك عن من هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخزوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وروى من وجه آخر عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخزوم عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر » والقول الثاني أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن علي رضي الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال أبو إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور سألت عليا رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال هو يوم النحر ، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي رضي الله عنه أنه خرج يوم النحر على بنته يضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها ، وقال عبد الرزاق عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وروى شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير بن نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال خطبنا النعيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر وقال حماد بن سلمة عن سبأ عن عكرمة عن ابن عباس انه قال : الحج الأكبر

يوم النحر ، وكذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى وقد ورد في ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني سهل بن محمد الحسائي حدثنا أبو جابر الحرثي حدثنا هشام بن الغازي الجرشي عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي جابر واسمه محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازي به ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضرة فقال « أتدرون أي يوم يومكم هذا؟ » قالوا يوم النحر ، قال « صدقتم يوم الحج الأكبر »

وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا يزيد بن زريع حدثنا بن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال « أي يوم هذا ؟ » قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال « أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟ » وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب عن عروة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال « أي يوم هذا ؟ » فقالوا اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم ، وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفيان أي أيامه كلها ، وقال سهل السراج سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر فقال مالك وللحج الأكبر ذلك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن ابن عون سألت محمداً يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر فقال كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته الضرورية التي عوهد عليها وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهد إلى مدته وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظهر على المسلمين أحداً أي يماليء عليهم من سواهم فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال (إن الله يحب التقيين) أي الوفيين بعهدهم

﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأُخْصِرُوهُمْ وَأَقْمِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرَّصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) الآية قاله أبو جعفر الباقر ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حرم الحرم وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر والذي يظهر من

حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه قال مجاهد وعمر بن شعيب ومحمد بن إسحق وقناة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمن عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحينئذ وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذکور أولى من مقدر ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة ، وقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أي من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله (ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقتلواكم فيه فان قاتلواكم فاقتلوهم) وقوله (وخذوهم) أي وأسروهم إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا وقوله (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أي لا تكفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اصدوهم بالحصار في معانقهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ولهذا قال (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ونه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمهاجرين وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث وقال أبو إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أبي الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفتقه !

وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض » قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ثم قال في آية أخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنبأنا حكام بن سلمة حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة من أول شهر ربيع الآخر ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذن براءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : قال أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، وتقضى ما كان سمي لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسحق بن موسى الأنصاري قال : قال سفيان بن عيينة قال علي بن أبي طالب بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) هكذا رواه مختصراً وأظن أن السيف الثاني هو قتال

أهل الكتاب لقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الدين أو تواتر الكتاب حتى يمطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (والسيف الثالث) قتال المنافقين في قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية (والرابع) قتال الباغين في قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى قاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله) ثم اختلف المفسرون في آية سيف هذه فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى (فإمنا بعد وإمنا بعد) وقال قتادة بالعكس

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحد من المشركين) الذين أمرتكم بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنه قوم لا يعلمون) أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده ، وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ومكرب بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ، ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أنشهد أن مسيلة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عقتك» وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لارحمه الله ولعنه . والفرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا مادام مترددا في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتة إليهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف أين تقفوا فقال تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كفرون به ورسوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) يعني يوم الحديبية كما قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد الحرام والهدى معكوف أن يبلغ محله) الآية (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أي مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين (فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك والسلمون . استمر العقد والمهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه معهم في الحرم أيضا فنصد ذلك غزاهم

رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصبهم والله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرها ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معادتهم والتبري منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد كشركتهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديبوا عليهم لم يبقوا ولم يدروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والوعوف عن ابن عباس : الإل القرابة والذمة العهد . وكذا قال الضحاك والسدي كما قال نعيم بن مقبل

أفسد الناس خلوف خلفوا * قطعوا الإل وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه وجدناهم كاذبا لهم * وذو الإل والعهد لا يكذب

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد لا يرقبون في مؤمن إلا : قال الإل الله ، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره . وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبي مجاز في قوله تعالى (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يقول لا يرقبون الله والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضا الإل العهد . وقال قتادة الإل الحلف

﴿ اشْتَرَوْا بِبَيِّتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا ففَضَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم (اشتروا بآيات الله تمنا قليلا) يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهاوا به من أمور الدنيا الحسيسة (فصدوا عن سبيله) أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق (إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) إلى آخرها تقدمت . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن الثني حدثنا يحيى بن أبي بكر حدثنا أبو جعفر الرازي حدثنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله (فإن تابوا) يقول فان خلعوا الأوثان وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال في آية أخرى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ثم قال البزار آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهو عنه راض وباقية عندى من كلام الربيع بن أنس

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَنَهُمُ يَنْتَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الدين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم (وطعنوا

في دينكم) أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال (فقاتلوا أئمة الكفر إثمهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون) أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر . كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف وعدد رجالا ، وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد . وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه مثله ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم ، وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال إنكم ستجدون قوما مجوفة رؤوسهم فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) رواه ابن أبي حاتم

﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وهذا أيضا تهيسج وتخضيس وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) الآية وقال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآية وقوله (وهم بدءوكم أول مرة) قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال بغيا وتكبيرا كما تقدم بسط ذلك ، وقيل المراد تقضيم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة . وقوله (آتخشوهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي فيبدي الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمت على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله (ويذهب غيظ قلوبهم) عليهم أيضا . وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن » ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم عن الباغندي عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجوزاء عنه (ويتوب الله على من يشاء) أى من عباده (والله عليم) أى بما يصلح عباده (حكيم) فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو العادل الحاكم الذى لا يجوز أبدا ولا يضع مثقال ذرة من خير وشئ بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم) أيها المؤمنون أن ترككم مهملين لا تختبركم بأموالكم يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي بطانة ودخيلة يلزم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله فاكتمني بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر

وما أدري إذا يمت أرضاً * أريد الخير أيهما يلي

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى (لم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة؟) الآية وقال تعالى (ما كان الله ليند المؤمنين على ما أتم عليه) الآية : والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا ومسجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسس خليل الرحمن هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالمهم كما قال السدي لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال نصراني ، ولو سألت اليهودي ما دينك لقال يهودي ، والصابي لقال صابي ، والمشرک لقال مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) أي بشركهم (وفي النار هم خالدون) وقال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فشهد تعالى بالإيمان لعبارة المساجد كما قال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو ابن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدرکه من حديث عبد الله بن وهب به : وقال عبد بن حميد في مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المري عن ثابت البناني عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ثم قال لا تعلم رواء عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعا « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » ثم قال غريب ، وروى الحافظ الهائي في المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي حدثنا منصور بن صفيح حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعا يقول الله : وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتجاين في وإلى المستغفرين بالإسحار صرفت ذلك عنهم . ثم قال ابن عساکر حديث غريب . وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فاياكم والشعاب عليكم بالجماعة والعامه والمسجد » وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون الأودي قال . أدركت أصحاب محمد ﷺ

وهم يقولون إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال السعدي عن حبيب ابن أبي ثابت وعدى بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يحجب ولم يأت المسجد ويصلي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية رواه ابن مردويه . وقد روى مرفوعاً من وجه آخر وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها . وقوله (وأقام الصلاة) أي التي هي أكبر عبادات البدن (وآتى الزكاة) أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله (ولم يخش إلا الله) أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) يقول من وحده الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعني الصلوات الخمس (ولم يخش إلا الله) يقول لم يعبد إلا الله ثم قال (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) يقول تعالى إن أولئك هم الفلحون كقوله لنبيه ﷺ (عسى أن يعينك ربك مقاماً محموداً) وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق

﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال إن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكتمت على أعقابكم تنكسون * مستكبرين به سامراً تهجرون) يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال (به سامراً) كانوا يسلمون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى (لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني الذين زعموا أنهم أهل العارة فسأهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العارة شيئاً

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: قال قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدر قال لأن كنتم سبقتونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك وقال الضحاك بن مزاحم أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعبرونهم بالشرك فقال العباس أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونفك العاني ونحج البيت ونسقي الحاج فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبي قال نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلمنا في ذلك وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لبيعة عن أبي صخرة قال سمعت محمد بن كعب القرظي يقول افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد ، فقال علي رضي الله عنه ما أدري ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله عز وجل

(أجعلتم سقاية الحاج ؟) الآية كلها وهكذا قال السدي إلا أنه قال افتخر على والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو بن الحسن قال : نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك فقال العباس ما أراي إلا أني تارك سقائنا فقال رسول الله ﷺ « أقيموا على سقائكم فإن لكم فيها خيرا » ورواه محمد بن نور عن معمر بن الحسن فذكر نحوه ، وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر بن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلا قال : ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمم المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه . فنزلت (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - لا يستون عند الله)

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبي سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين) ورواه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفسيرهم وابن حبان في صحيحه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، وهى عن موالاتهم إن استحبوا أى اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح يبعثه الألهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يمدعنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وحصلتموها (وتجارة تخشون كسادها ومسكين ترضونها) أى تحبونها لطيبها وحسنها أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا) أى فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال (حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلى من نفسي ، فقال رسول الله « الآن يا عمر » انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع عبد الله بن هشام عن النبي ﷺ بهذا وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظه من حديث أبي عبد الرحمن الحراساني عن عطاء الحراساني عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد ابن هارون عن أبي حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك ، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وََلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال ابن جرير عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وتأييده وتقديره لا بعددكم ولا بعددكم ونهبهم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو أكثر فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنينه إن شاء الله تعالى مفضلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا . وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكم بن الجون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضيتهم وقضيتهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الدين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كتمت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء

يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر
يثقلانها لثلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول « إلى عباد الله إلى »
أنا رسول الله » ويقول في تلك الحال « أنا النبي لا كذب » أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مائة
ومنهم من قال ثمانون فثمن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلی والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث
وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن
ينادي بأعلى صوته بأصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن
لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك ،
وانعطف الناس فترجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع
لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدتوا الجملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره ،
وقال « اللهم أنجز لي ما وعدتني » ثم رمى القوم بها فثابت في إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفيه ما شغله عن القتال ثم
انهزموا فاتبع المسلمون أقباهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبيد الله بن سيار عن
أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله
ﷺ في غزوة حنين فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست
لأمتي وركبت فرسي فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة
الله وبركاته حان الرواح فقال : « أجل » فقال « يا بلال » فإمر من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك
وأنا فداؤك فقال « أسرج لي فرسي » فأخرج سرجا دفناه من ليف ليس فيهما أثر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا
فصافقناهم عشيتنا ووليتنا فتشامت الحيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى (ثم وليتم مدبرين) فقال رسول الله
ﷺ « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله » ثم قال « يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله » قال ثم اقتحم عن
فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال « شامت الوجوه » فهزمهم
الله تعالى . قال يعلى بن عطاء فحدثني أبنائهم عن آبائهم أنهم قالوا لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفيه ترابا وسمعنا
صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد ، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من
حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر
عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فأعدوا
وتهيئوا في مضائق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عمية
الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الحيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول « أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد
ابن عبد الله » فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قال « يا عباس
اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة » فأجابوه لبيك ، لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك
فيقتذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة
فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرأ بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب
وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركابه فنظر إلى مجتهد القوم فقال « الآن حمى الوطيس » قال فوالله ما راجعه
الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهرم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم
وأبناءهم وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلا قال له يا أبا عمارة

أفرتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ قال لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هو أزن كانوا قوما رماة فلما لتيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسفیان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول «أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبدالمطلب» قات وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا تمعة بالله وتوكلا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أي طمأنينته وثباته على رسوله (و على المؤمنين) أي الذين معه (وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتز بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الاعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شأهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمتنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن الحسن الجري حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضى الله عنه كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعت الله قال «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً قال «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت : هم هناك قال «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أذبارهم ، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان بن نخوع ، وقال الوليد بن مسلم حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبه بن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أنى وعمى وقتل على وحمة إياها فقلت اليوم أدرك ثأرى منه قال فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجثته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجثته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فضخت أن يغمشى فوضعت يدي على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «ياشيبه يا شيبه ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان» قال فرفعت إليه بصرى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقال «ياشيبه قاتل الكفار» رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به . ولكنى آبيت أن تظهر هوأزن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال «ياشيبه إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده على صدرى ثم قال «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثانية ثم قال «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثالثة ثم قال «اللهم اهد شيبه» قال فوالله ما رفع يده عن صدرى في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلى منه وذكر تمام الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين ، قال محمد بن إسحق حدثني أبي إسحق بن يسار عن عمن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فاذا نعل مشور قد ملأ الوادى فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك

أنها الملائكة ، وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حيننا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا ، وقد تقدم له شاهد من حديث الفهرى يزيد بن أسيد فأنزل الله عليه ، وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم » ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) وقوله (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقرب من عشرين يوما فعند ذلك خيروهم بين سبهم وبين أموالهم فاخاروا سبهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغاميين ونقل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * في الناس كلهم بمثل محمد * أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومتى يشأ يخبرك عما في غد * وإذا الكتيبة عردت أنيابها * بالسهمرى وضرب كل مهند
فكانه لث على أشباله * وسط المباءة خادر في مرصد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ أَحْلَقَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿

أمر تعالى عباده المؤمنين الظاهرين دينا وذاتا بنفي المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادى في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتى الله ذلك وحكم به شرعا وقدرأ . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) إلا أن يكون عبداً أو أحدأ من أهل النمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعني ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يدخل مسجدا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » تفرد به الإمام أحمد مرفوعا والوقوف أصح إسنادا . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نبيه قول الله تعالى (إنما المشركون نجس) وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير . وقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) قال محمد بن إسحق وذلك أن الناس قالوا لتقطعنا عنا الأسواق وتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من الرفاق فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) من وجه غير ذلك (إن شاء) إلى قوله (وهم صاغرون) أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع

تلك الأسواق فموضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعتاق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (إن الله عليم) أى بما يصلحكم (حكيم) أى فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل النعمة . وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الدين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمرو باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الدين أوتوا الكتاب) وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدب أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدلت بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم . وقوله (حتى يعطوا الجزية) أى إن لم يسلموا (عن يد) أى عن قهر لهم وغلبة (وهم صاغرون) أى ذليلون حقيرون مهانون فلماذا لا يجوز إعزاز أهل النعمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه » ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراريها وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجد ما خرب منها ولا نحى منها ما كان خططا للمسلمين وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للبارة وابن السبيل وأن نزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجاوس ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتمى بكنائهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا

تتخذ شيئاً من السلاح ولا تحمله معنا ولا نتقش خواتمنا بالعريية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادير رءوسنا وأن نلزم زينا حيا كنا وأن نشد الزناير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعائين ولا بعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر الثيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلاذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العاقلة لما غلبت على بني إسرائيل قتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكي على بني إسرائيل وذهب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فيينا هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذ امرأة تبكي عند قبره وهي تقول : وامطعاه واكسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت الله قال : فإن الله حي لا يموت ، قالت يا عزير فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال : الله . قالت فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فانك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيشة الجرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله . وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال (ذلك قولهم بأفواههم) أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم (يضاؤون) أي يشابهون (قول الذين كفروا من قبل) أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله (أنى يؤفكون؟) أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال : قلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟ » ثم دعاه

إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال « إن اليهود مغضوب عليهم والبصاري ضالون » وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير (اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أربابا من دون الله) إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وقال السدي : استنصحووا الرجال ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وماحلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من الشركين وأهل الكتاب (أن يطفئوا نور الله) أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد حدالمهم واقترانهم مثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهنأ لاسبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء والزراع كافرا لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال (يعجب الكفار ناته) ثم قال تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فالهدى هو ما جاء به من الاخبار الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة (ليظهره على الدين كله) أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمق مازوى لى منها » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أوقبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعزىزا وينزل ذليلا ، عزاء يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر » فكان تميم الدارى يقول قد عرفت ذلك أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والحزبية .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزا ، وينزل ذليلا أما يعزم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما ينظم فيدينون لها » وفى المسند أيضا حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا عدى أسلم تسلم » فقلت إنى من أهل دين قال « أنا أعلم بدينك منك » فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال « نعم ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرياع قومك ؟ » قلت بلى قال « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفه الناس ومن لاقوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدى بن حاتم فهذه

الطعنة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وقال مسلم حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضی الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقلت يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) الآية أن ذلك تام ، قال « إنه سيكون من ذلك ماشاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قال السدي : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبارم علماء اليهود كما قال تعالى (لولا ينهائم الربايون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) والرهبان عباد النصارى والقسيسون علمائهم كما قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً) والقصد التحذير من علماء سوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبهة من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبهة من النصارى . وفي الحديث الصحيح « تركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفي رواية فارس والروم ؟ قال « فمن الناس إلا هؤلاء ؟ » والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى (لياكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خراج وهدايا وضرائب تجيء اليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلمهم إياها وعوضهم النذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى . وقوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وقوله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدى زكاته ، وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفا ومرفوعا ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أدت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكره به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبي أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جمعة بن

هيرة عن علي رضي الله عنه قال : أربعة آلاف فمادونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء في مدح التقل من الذهب والفضة واذم التسكر منهما أحاديث كثيرة. ولينورد منها هنا طرفا يدل على الباقي قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جمدة بن هيرة عن علي رضي الله عنه في قوله (والذين يكتزون الذهب والفضة) الآية . قال النبي ﷺ « تبا للذهب تبا للفضة » يقولها ثلاثا قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأى مال تتخذ ؟ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال تتخذ قال « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبي محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال « تبا للذهب والفضة » قال وحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله قولك « تبا للذهب والفضة » ماذا ندخر ؟ قال رسول الله ﷺ « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال : لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا فأى المال تتخذ ؟ قال عمر فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره فقال يا رسول الله أى المال تتخذ ؟ قال « قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذي حسن وحي عن البخاري أن سالما لم يسمعه من ثوبان قلت ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي حدثنا أبي حدثنا غيلان بن جامع المحاربي عن عثمان بن أبي اليقظان عن جعفر بن أبي إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (والذين يكتزون الذهب والفضة) الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأثنى النبي ﷺ فقال : بانبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ « إن الله لم يفرض الركاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبق بعدكم » قال فكبر عمر ثم قال له النبي ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلا فقال لعلامة ائتنا بالسفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلتي هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأسألك ما تعلم وأسألك ما تعلم إنك أنت علام الغيوب »

وقوله تعالى (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون) أى يقال لهم هذا الكلام تبيكتنا وتقرعنا وتهكنا كما في قوله (ثم صبا فوق رأسه من عذاب الحميم) * ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى هذا بذالك وهذا الذى كنتم تكزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أتر عندهم من رضا الله عنهم عبدوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا في عداوة رسول الله ﷺ وامراته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوننا على عذابه أيضا في جديدها أى عنقها جبل من مسد أى يجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا

كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحصى عليها في نار جهنم وناهيك بجرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكتز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ، وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح رفعه والله أعلم وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول « من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زببتان يتبعه ويقول ويلك ما أنت ؟ فيقول أنا كنزك الذي تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيضمها ثم يتبعها سائر جسده » ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد بن سعيد به وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل لا يؤدي زكاة عمله إلا جعل له يوم القيامة صفاً من نار فيكوى بها جنبه وجهه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث . وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين بن زيد بن وهب قال مررت على أبي ذر بالبصرة فقلت ما أتلك بهذه الأرض ؟ قال كنا بالشام فقرأت (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين بن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي تنح قريباً قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه محريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه فنهأ معاوية فلم ينته فخشى أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالبصرة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدي هي في أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال . بشر الكنازين برضف يحصى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ندى أحدهم حتى يخرج من نفض كتفه ويوضع على نفض كتفه حتى يخرج من حلمة نديه يتزلزل قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحداً منهم يرجع إليه شيئاً قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر « ما يسرنى أن عندي مثل أحد ذهباً يمر علي ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرسده لدين » فهذا والله أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجهم ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوساً قال قلت لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلي عهد إلى أن أياها ذهب أو فضة أو كيء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد بن همام به وزاد إفراغاً

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة ابن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الرهاوي عن عطاء عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اللق الله فقيراً ولا تلقه غنيا » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تجبأ » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ « هوذاك وإلا فالنار » إسناده ضعيف

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت علياً رضى الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ « كيتان صلوا على صاحبكم » وقد روى هذا من طرق أخر ، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ « كية » ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيتان » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراء يسي حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلسي حدثني أرطاة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون » سيف هذا كذاب متروك

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أبواب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ثم قال « أى يوم هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس يوم النحر » قلنا بلى ثم قال « أى شهر هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس ذا الحجة » قلنا بلى ثم قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال « فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لاترجعوا بعدى ضللا يضرب بعضكم رقاب بعض أهل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فاعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » ورواه البخارى في التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه به ، وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ورواه البزار عن محمد ابن معمر به . ثم قال لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقره عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه به ، وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد ابن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله ﷺ في حجة

الوداع بنى في أوسط أيام التشريق فقال « أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم » وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مشله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال كنت آخذنا بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن السكاكي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (منها أربعة حرم) قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ في الحديث « إن الزمان قد وثبت استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وثبتت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمته الله تعالى إلى يوم القيامة » وهكذا قال ههنا « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي الأمر اليوم شرعا كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض ، وقد قال بعض المفسرين والتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أنه اتفق أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء وأغرب منه مارواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم . (فصل) ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرا محرما ، وعندى أنه سمي بذلك تأكيدا للتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم ، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم مهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المسكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال ، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعتهم فيه والارتباع الإقامة في عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء وعلى أربعة كرفيف وأرغفة ، وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجود الماء فيه ، قال وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جود الماء في البرد كما قال الشاعر .

وليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر العبد في ظلماتها الطنبا

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خرطومها الدنبا

ويجمع على جماديات كجباري وجباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة . رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقتها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف ويثبت في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف : قلت وكسرها . لعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة . الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ويجمع على ذوات الحجة ، أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحد ووحد ، ثم يوم الاثنين ويجمع على اثنين والثلاثاء عد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرباع ويجمع على أربعين ويجمع على خمسة وأخماس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجاعات ، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم

جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر : من العرب العرباء العاربة المتقدمين :
أرجى أن أعيش وإن يوحى * بأول أو بأهون أو جبار * أو التالى دبار فان أفته * فؤنس أو عروبة أو شيار
وقوله تعالى (منها أربعة حرم) فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا
طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاوتشديدا ، وأما قوله « ثلاثة متواليات ذو القعدة
وذو الحجة والحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليعين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر
الذى بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم
فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل
أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر
ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى
بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب
فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا ، وقوله (ذلك الدين القيم) أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل
من الأشهر الحرم والحدو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فى هذه الأشهر
المحرمة لأنها آكد وأبلغ فى الاثم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى (ومن يرد فيه بالحاد
بظلم نذقه من عذاب أليم) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة
كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم ، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن
مهران عن ابن عباس فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال فى الشهور كلها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس
قوله (إن عدة الشهور عند الله) الآية فلا تظلموا فيهن أنفسكم فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما
وعظم حرمانهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)
إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم
من أمره ما يشاء ، وقال : إن الله اصطفى صفايا من خلقه . اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من
الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام
يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فاعظموا ما عظم الله . فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل
العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد بن إسحق
(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسء الذى كانوا
يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر (يضل به الذين كفروا) الآية ، وهذا القول اختيار ابن جرير وقوله (وقاتلوا المشركين
كافة) أى جميعكم (كما يقاتلونكم كافة) أى جميعهم (واعلموا أن الله مع التقيين) وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال
فى الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا (فلا تظلموا
فيهن أنفسكم) وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عاما ولو كان محرما فى الشهر الحرام
لأوشك أن يقيد به بالسلامة ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى
الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجئوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف
فحاصره أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام
حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) وقال (الشهر
الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) الآية وقال (فإذا نسلخ
الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين) الآية وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين . وأما قوله
تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التيسير

والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أتم أيضا لهم إذا حاربتموهم وفانلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم كما قال تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال تعالى (ولا تقتاتوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) الآية وهكنا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فانه من تنمة قتال هوازن وأحلافها من تقيف فانهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداءه فى شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم ، ولندكر الأحاديث الواردة فى ذلك (١) وقد حررنا ذلك فى السيرة والله أعلم

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُصَلِّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بأرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فانهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحاون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجندل الطعان

لقد علمت معدًا بأن قومي * كرام الناس إن لهم كراما * ألسنا الناسين على معد
شهور الحل نجعلها حراما * فأى الناس لم ندرك بوترا * وأى الناس لم نعلك لجاما

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما النسئء زيادة فى الكفر) قال النسئء أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى كان يوافقى الموسم فى كل عام وكان يكنى أبا نمامة فينادى ألا إن أبا نمامة لا يجاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس فيحرم صفرًا عامًا ويحرم المحرم عامًا فذلك قول الله (إنما النسئء زيادة فى الكفر) يقول يتركون المحرم عامًا وعامًا يحرمونه ، وروى العوفى عن ابن عباس نحوه ، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس : إنى لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حررنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجئ العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حررنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) قال يعنى الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام ، وروى عن أبى وائل والضحاك وقتادة نحو هذا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (إنما النسئء زيادة فى الكفر) الآية . قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال أخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئء العام هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة فى النسئء وفيها نظر لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى (يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله) وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا فقال عبد الرزاق أنا معمر عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (إنما النسئء زيادة فى الكفر) الآية ، قال ، فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة ، قال وكان المشركون

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التى وعد بها فتدبر

يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجادى وجادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة
 وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرا ، ثم يسمون رجب
 جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون
 ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه الصفة
 فكانوا يحجون في كل شهر عامين حتى إذا وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذى القعدة ، ثم حج النبي صلى الله
 عليه وسلم حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته « إن الزمان
 قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضا وكيف تصح حجة أبي بكر
 وقد وقعت في ذى القعدة وأتى هذا ؟ وقد قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله
 برىء من المشركين ورسوله) الآية وإنما نودى به في حجة أبي بكر فولم تكن في ذى الحجة لما قال تعالى (يوم الحج
 الأكبر) ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين فإن النسيء
 حاصل بدون هذا فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة
 بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع
 وربيع إلى آخرها (فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) أي في تحريم أربعة أشهر
 من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة التتالية وهو المحرم وتارة ينسئون إلى صفر
 أي يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ « إن الزمان قد استدار » الحديث أي إن الأمر في عدة الشهور
 وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي لا كما تعتمد جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها
 بالنسيء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبي حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سلامة الطبراني حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى
 ابن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله
 من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال « وإنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين
 كفروا يحلون عاما ويحرمونه عاما » فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسيء وقد تكلم
 الإمام محمد بن إسحق على هذا في كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال : كان أول من نسا الشهور على العرب فأحل منها
 ما حرم الله وحرّم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك
 ابن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه
 قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت
 العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل
 مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعني ويحرم ما أحل الله والله أعلم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يَعْذَابَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر
 وحمارة القيظ فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله) أي إذا دعيتم إلى الجهاد
 في سبيل الله (اتألتم إلى الأرض) أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والحفص وطيب الثمار (أرضيتم بالحياة الدنيا
 من الآخرة ؟) أي ما لكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورجب

في الآخرة فقال (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) كما قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع ؟ » وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم . وروى ابن أبي حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بمحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال : قلت يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول سمعت نبي الله ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) فالدنيا ماضى منها وما بقي منها عند الله قليل . وقال الثوري عن الأعمش في الآية (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) قال كزاد الراكب وقال عبدالعزيز ابن أبي حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة . قال اثنتونى بكفى الذى أ كفن فيه أنظر اليه فلما وضع بين يديه نظر اليه فقال أمالى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فسكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفي غرور . ثم توعده تعالى من ترك الجهاد فقال (إلاتفروا يعذبكم عذابا أليما) قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فشقاقوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) (ولا تضروه شيئا) أى ولا تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وثناقلكم عنه (والله على كل شيء قدير) أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل إن هذه الآية وقوله (انفروا خفافا وثقالا) وقوله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) انهن متسوخات بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد ابن أسلم ورده ابن جرير وقال إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أُثْنِينَ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى (إلاتنصروه) أى تنصروا رسوله فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين) أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صدقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبوبكر رضى الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبابكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا نحت قدميه قال فقال « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه في الصحيحين ، ولهذا قال تعالى (فأنزله الله سكينته عليه) أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل على أبى بكر ، وروى عن ابن عباس وغيره قالوا لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينه وهذا لا ينافى تجدد سكينته خاصة بتلك الحال ولهذا قال (وأيده بجنود لم تروها) أى الملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هى لا إله إلا الله . وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال « من فاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وقوله (والله عزيز) أى فى انتقامه وانتصاره ، منبع الجناب لا يضام من لاذ بيا به ، واحتى بالتسك بخطابه (حكيم) فى أقواله وأفعاله

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال سفيان الثوري عن أبيه عن أنى الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيرا فيقول إني لا آثم فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكروه والعسر واليسر فقال (انفروا خفافا وثقالا) وقال على بن زيد عن أنس عن أبي طلحة : كهولا وشبانا ما سمع الله عندهم أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأنى على هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا جهزوني يا بنى ، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبى بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فى جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير دفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح والحسن البصرى وسهيل ابن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) كهولا وشبانا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد ، وقال مجاهد شبانا وشيوخا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة : مشاغيل وغير مشاغيل ، وقال العوفي عن ابن عباس فى قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) يقول انفروا نشاطا وغير نشاط ، وكذا قال قتادة وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (انفروا خفافا وثقالا) قالوا فان فىنا الثقل وذا الحاجة والضيعة والشغل والتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا (خفافا وثقالا) أى على ما كان منهم وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضا فى العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية وهذا اختيار ابن جرير

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافا وركبانا وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا وركبانا ومشاة وهذا تفصيل فى السألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد ابن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله ، وقال السدى قوله (انفروا خفافا وثقالا) يقول غنيا وفقيرا وقويا وضعيفا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيمنا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب حدثنا ابن عليه حدثنا أبو بوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرأثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاما واحدا قال وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلًا . وقال ابن جرير حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا جرير حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة حدثنى أبو راشد الحرانى قال وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من نوايب الصيارفة بمحص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله إليك فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالا) وقال ابن جرير حدثنى حبان بن زيد الشرعى قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا

كبيرهما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيقويه وإنما يتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل . ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تعلمون في النفقة قليلا فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ « تكفل الله للجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة ولهذا قال الله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال اجدنى كارها قال « أسلم وإن كنت كارها »

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال (لو كان عرضا قريبا) قال ابن عباس : غنيمة قريبة (وسفرا قاصدا) أي قريبا أيضا (لاتبعوك) أي لكانوا جاءوا معك لذلك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أي المسافة إلى الشام (وسيحلفون بالله) أي لكم إذا رجعت إليهم (لو استطعنا لخرجنا معكم) أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى (يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون)

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم معاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال (عفا الله عنك لم أذنبت لهم) وكذا قال مورق العجلي وغيره . وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) الآية . وكذا روى عن عطاء الخراساني ، وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أي في إبداء الأعذار (وتعلم الكاذبين) يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فانهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال (لا يستأذنك) أي في القعود عن الغزو (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندمهم إليه بادروا وامتثلوا (والله علم بالمتقين * إنما يستأذنك) أي في القعود ممن لا عذر له (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم (وارتابت قلوبهم)

أى شكت في صحة ما جئتهم به (فهم في ريبهم يترددون) أى يتحiron يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكت لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلْمَكُمْ بِنِفْوَانِكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى (ولو أرادوا الخروج) أى معك إلى الغزو (لأعدوا له عدة) أى لكانوا تأهوا له (ولكن كره الله انبعاثهم) أى أبغض أن يخرجوا معك قدراً (فثبطهم) أى أخرجهم (وقيل اعدوا مع القاعد) أى قدراً ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال (لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً) أى لأنهم جناء مخدولون (ولأضعفوا خيلكم بيفنونكم الفتنة) أى ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالثيمة والبغضاء والفتنة (وفيكم سماعون لهم أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير (وفيكم سماعون لهم) أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال محمد بن إسحق كان الدين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرفا في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرههم فيهم فقال (وفيكم سماعون لهم) ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال (والله عليم بالظالمين) فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً) فأخبر عن حالهم كيف يكون لوخرجوا ومع هذا ماخرجوا كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد ثبوتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهدىناهم صراطا مستقيماً) والآيات في هذا كثيرة

﴿ لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا لنبية عليه السلام على المنافقين (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) أى لقد أحملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة : وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبى وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون)

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد (ائذن لي) في القعود (ولا تفتني) بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) أى قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك يا جد العام في جلد بنى الأصفر؟ » فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال « قد أذنت لك » ففى الجد بن قيس نزلت هذه (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فاسقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا الجد بن قيس طى أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل ! ولكن سيدكم الفقى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » وقوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى لا يحيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب

﴿ إِن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعدواة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك (وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) أى قد احتزنا من متابعتهم من قبل هذا (ويتولوا وهم فرحون) فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى حوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال (قل) أى لهم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى نحن تحت مشيئته وقدره (هو مولانا) أى سيدنا وملجؤنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنْتُمْ كُفْرًا قَوْمًا فَسِئْتِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴾

يقول تعالى (قل) لهم يا محمد (هل ترصدون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسينين) شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم (ونحن نترصد بكم) أى ننتظر بكم (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) بسبب أو بقتل (فترصدوا لنا معكم مترصدون) وقوله تعالى (قل أنفقوا طوعاً أو كرها) أى مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين (لن يتقبل منكم إن كنتم كفرة قوما فاسقين) ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم (لأنهم كفروا بالله ورسوله) أى والأعمال إنما تصح بالإيمان (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ليس لهم قدم صحيح ولا هممة فى العمل (ولا ينفقون) نفقة (إلا وهم كارهون) وقد أخبر الصادق الصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى

ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (وقال (أيحسبون أن مانعدهم به من مال
وبنين نساوع لهم في الحيرات بل لا يشعرون) وقوله (إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) قال الحسن البصري
بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقال قتادة هذا من المقدم والوخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة
الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن ، وهو القول القوي الحسن وقوله (وتزهق
أنفسهم وهم كفرون) أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنسكى لهم وأشد لعذابهم . عياذا بالله من ذلك
وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ وَمَا مِنْكُمْ وَلَكُمْهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَاتٍ
أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم وفراقهم وهلمهم أنهم (يخلصون بالله إنهم لمنكم) يمينا مؤكدة
(وما منكم) أي في نفس الأمر (ولكمهم قوم يفرقون) أي فهو الذي حملهم على الحلف (لو يجدون ملجأ)
أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به (أو مغارات) وهي التي في الجبال (أو مدخلا) وهو السرب في الأرض
والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقاتدة (لولوإ إليه وهم يجمحون) أي يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما
يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فيهم وحزن وغم لأن الإسلام
وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، ولهذا كلما سر المسلمون ساءم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال
(لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوإ إليه وهم يجمحون)

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم) أي ومن المنافقين (من يلزمك) أي يعيب عليك (في) قسم (الصدقات) إذا فرقتها
ويتهمك في ذلك وهم التهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا (إن
أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون) أي يعضبون لأنفسهم ، قال ابن جريج أخبرني داود
ابن أبي عاصم قال أتى النبي ﷺ بصدقة فقسماها هاهنا وههنا حتى ذهبت قال ووراءه رجل من الأنصار فقال
ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة في قوله (ومنهم من يلزمك في الصدقات) يقول ومنهم من يظن عليك
في الصدقات ، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم
ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « ويلك
فئن ذا الذي يعدل عليك بعدى ؟ » ثم قال نبى الله « احذروا هذا وأشباهه فإن في أمق أشباه هذا يقرءون القرآن
لا يجاوز تراقيهم فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » وذكر لنا أن نبى الله صلى الله
عليه وسلم كان يقول « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن » وهذا الذى ذكره قتادة يشبه
ما رواه الشيخان من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذى الحويصرة واسمه حرقوص لما اعترض
على النبي صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت
إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفياً « إنه يخرج من ضئضى هذا قوم
يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينا لقيتموهم
فاقتلوهم فانهم شر قتلى تحت أديم السماء » وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منها لهم على ما هو خير لهم من ذلك

فقال (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) فتضمنت هذه الآية الكريمة أبا عظيماً وسرا شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله (وقالوا حسبنا الله) وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتنال أوامره وترك زواجه وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجبهة على النبي ﷺ ولزمه إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبدالرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائى رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين (أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعى وجاعة (الثانى) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع الى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجاعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون ابن مهران ، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، وطى هذا فأما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف للوجوب استيعابها . ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غيرها والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضى الله عنه : الفقير ليس بالذى لامال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية الأخلق المحارف عندنا ، والجهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصرى وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا والمسكين هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثورى يعنى ولا يعطى الأعراب منها شيئا وكذا روى عن سعيد ابن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى ، وقال عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية * فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى ولا لى مرة سوى » رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، ولأحمد أيضا والنسائى وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الحيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلددين فقال « إن شئنا أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » رواه أحمد وأبو داود والنسائى بإسناد جيد قوى وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل : أبو بكر العيسى قال قرأ عمر رضى الله عنه (إنما الصدقات للفقراء) قال هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك (قلت) وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه فى حكم المجهول ، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمر والتمران قالوا فما للمسكين يارسول الله ؟ قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » رواه الشيخان . وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز

أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب من ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل ابن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال « إن الصدقة لالحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ». وأما المؤلفات قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنأم حنين وقد كان شهدا مشركا قال فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى ، كما قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإني لأبغض الناس إلى فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلى ، ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل مائة من الإبل وقال « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم » . وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن عليا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بنهية في تربتها من اليمن قسمها بين أربعة نفر : الأفرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال « أتألفهم » ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم

وهل تطعى المؤلفات على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم . وأما الرقاب فروى عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون ، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما . وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة وهو مذهب أحمد ومالك وإسحق أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً ، وقد ورد في ثواب الاعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج وماذا إلا لأن الجزء من جنس العمل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازي في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف » رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود ، وفي المسند عن البراء بن عازب قال جاء رجل فقال يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار فقال « أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أوليس واحدا ؟ قال « لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها » وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأنتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال ثم قال « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادا من عيش - فما سواهن من المسئلة سحت يأكلها صاحبها سحتاً » رواه مسلم ، وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثرت دينه فقال النبي ﷺ « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يباغ ذلك وفاء دينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك » رواه مسلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد أنبأنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن يزيد عن قاضي الصريين عن عبد الرحمن بن

أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ « يدعو الله لصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن آتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعه . فيقول الله صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك اليوم فيدعو الله بشيء يضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته » وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحجج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغنى إلا الخمسة : العامل عليها وأورجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى » وقد رواه السفينان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلًا ، ولأبي داود عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك » وقوله (فريضة من الله) أى حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه (والله عليم حكيم) أى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبصالح عباده (حكيم) فيما يقوله ويفعله وبشرعه ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون (هو أذن) أى من قال له شيئاً صدقه فينا ومن حدثه صدقه فإذا جشناه وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . قال الله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدق المؤمنون (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو حجة على الكافرين ولهذا قال (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَكْزَبُ الْعَظِيمِ ﴾

قال قتاده في قوله تعالى (يخلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . قال ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال والله إن هؤلاء خيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًا ، لهم شر من الحمير . قال فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار قال فسعى بها الرجال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعا فقال « ما حملك على الذى قلت ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله الآية . وقوله تعالى (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) الآية أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد (فأن له نار جهنم خالدًا فيها) أى مهاناً معذباً (ذلك الحزى العظيم) أى وهذا هو النذل العظيم والشقاء الكبير

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفتنى علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) وقال في هذه الآية (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم - إلى قوله - ولتعرفنهم في لحن القول) الآية ، ولهذا قال قتادة كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُغَدِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَأَنُورٍ مُّجْرِمِينَ ﴾

قال أبو معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأحبنا عند اللقاء . فرجع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين) وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقال عبد الله بن وهب : أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبين عند اللقاء . فقال رجل في المسجد : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيته متعلقا بحقب ناقته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .) الآية . وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا . وقال ابن إسحق وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض أتحمسون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأننا بكم غدا مقرنين في الجبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين فقال مخشي بن حمير والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإنما نلعب أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر « أدرك القوم فانهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فان أنكروا فقل بلى قاتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتذرون إليه فقال ودیعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته فجعل يقول وهو أخذ بحقبها يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشي بن حمير يا رسول الله قد بدى اسمي واسم أبي فكان الندي عني عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبدالرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أسر . وقال قتادة (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) قال فيينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ما قالوا فقال « على هؤلاء النفر » فدعاهم فقال « قلم كذا وكذا » فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب . وقال عكرمة في تفسير هذه الآية كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفتت أنا دفنت . قال فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره . وقوله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى بهذا المقال الذي استهزأتم به (إن نلعب عن طائفة منكم نلعب طائفة) أى لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم (بأنهم كانوا مجرمين) أى مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الحاطة .

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِضُفٍّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الاتفاق في سبيل الله (نسوا الله) أى نسوا ذكر الله (فنسيهم) أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) (إن المنافقين هم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة وقوله (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم) أى على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها مخلدين هم والكفار (هى حسبهم) أى كفايتهم فى العذاب (ولعنه الله) أى طردهم وأبعدهم (ولهم عذاب مقيم)

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَأَسْتَمْتَمُوا بِمَخْلَقَتِهِمْ فَمَا اسْتَمْتَمَتْ بِمَخْلَقَتِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقَتِهِمْ وَخُضِّمُوا خَاضُوا أَوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقوله (بمخلقتهم) قال الحسن بدنيهم وقوله (وخضتم كالذى خاضوا) أى فى الكذب والباطل (أولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة (فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (كالذين من قبلكم) الآية قال ابن عباس ما أشبه الليلة بالبارحة (كالذين من قبلكم) هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : « والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لودخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه » قال ابن حريج وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد القبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شربا بشرب وذراعا بذراع وباعا ببيع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب قال « فمن ؟ » وهكذا رواه أبو معشر عن أبى سعيد القبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره وزاد قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم القرآن (كالذين من قبلكم) الآية قال أبو هريرة الخلاق الدين (وخضتم كالذى خاضوا) قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال « فهل الناس إلا هم ؟ » وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) أى ألم تحجروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول (قوم نوح) وما أصابهم من العرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبدته ورسوله نوح عليه السلام (وعاد) كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودا عليه السلام (وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة (وقوم إبراهيم) كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم عمرو بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب عليه السلام

وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة (والمؤثقات) قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى (والمؤثقة أهوى) أى الأمة المؤثقة وقيل أم قراهم وهى سدوم والفرس أن الله تعالى أهلكتهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين (أتتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج والدلائل القاطعات (فما كان الله ليظلمهم) أى باهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحججة بإرسال الرسل وإزاحة العلل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه ، وفى الصحيح أيضا «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر» وقوله (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) كقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية وقوله (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما أمر وترك ما عنه زجر (أولئك سيرحمهم الله) أى سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات (إن الله عزيز) أى يعز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (حكيم) فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فإنه الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى بما أعدده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم القيم فى (جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كثر فيها أبدا (ومسكن طيبة) أى حسنة البناء طيبة القرار كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى عن أبىه قال : قال رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمن فى الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا» أخرجاه فى الصحيحين ، وفيهما أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله وأحبس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا يارسول الله أفلا تخبر الناس ؟ قال «إن فى الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله . وللترمذى عن عبادة بن الصامت مثله وعن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليرأون الغرف فى الجنة كما ترون الكوكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين ، ثم ليعلم أن أعلى منزلة فى الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن

كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا صليت على فسأوا الله الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أطل درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو »

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول « إذا سمعت المؤذن تقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي الأبار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » رواه الطبراني . وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن أبي المدله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتراها الزعفران . من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وروى عن ابن عمر مرفوعا نحوه ، وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال يا رسول الله لمن هي ؟ فقال « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » ثم قال حديث غريب ورواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وكل من الاسنادين جيد حسن . وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري فإله أعلم ، وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « أأهل من مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا حظ لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحسرة ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، رواه ابن ماجه . وقوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطينا ما لم نعط أحدا من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجه من حديث مالك ، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الحمالي حدثنا الفضل الرجائي حدثنا الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا ياربنا ما خير مما أعطينا ؟ قال رضواني أكبر » ورواه البراز في مسنده من حديث الثوري ، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة هذا عندي على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَشَاءُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعدَّبْنَهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فأتوا المشركين) وسيف للكفار أهل الكتاب (فقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وسيف للمنافقين (جاهد الكفار والمنافقين) وسيف للبلغاة (فقاتلوا التي تبغى حتى تغىء إلى أمر الله) وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهر والنفاق وهو اختيار ابن جرير ، وقال ابن مسعود في قوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين) قال يده فان لم يستطع فليكفر في وجهه . وقال ابن عباس أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الفرق عنهم ، وقال الضحاك جاهد الكفار بالسيف واغظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وعن مقاتل والريعي مثله : وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم . وقوله (يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلا من جهني وأنصارى فعلا الجهني على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أحاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إل كما قال القائل : ممن كلبك يا كلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يخلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية : وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن موسى بن عقبة قال فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول حزنت على من أصيب بالحرمة من قومي فكنت إلى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار » وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار قال ابن الفضل فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال هو الذى يقول له رسول الله ﷺ « أوفى الله له بإذنه » قال وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجدده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد ، يعنى قوله (يخلفون بالله ما قالوا) الآية رواه البخارى في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذى أوفى الله له بإذنه . ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى ابن عقبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب . والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوى وهم في ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم . قال الأمامى في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا إنك امرؤ شاعر فان شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي بلاء وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرت لها لتفضحنى ولئن كتمتها لتهلكنى ولاحداهما أهون علي من الأخرى . فمضى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على ، فأنزل الله عز وجل فيه (يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها

فرعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية في الجلاس ابن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشرف من حمرنا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قات فأنتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبي قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبي قارعة ما أخبرتك . قال فدعا الجلاس فقال « يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب؟ » فحلف فأنزل الله (يخلفون بالله ما قالوا) الآية وقال محمد بن إسحق كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني أيوب ابن إسحق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ حالسا في ظل شجرة فقال « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعيني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه » فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « علام تشتمني أنت وأصحابك؟ » فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى نجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل (يخلفون بالله ما قالوا) الآية وقوله (وهو بما لم ينالوا) قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ وقيل في عبد الله بن أبي هم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السدي نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك فهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختری عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كنت آخذنا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فاتهرهم رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متاشمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟ » قلنا لا ، قال « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلغوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نعت إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال « لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالديلة » قلنا يا رسول الله وما الديلة؟ قال « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلمثون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة « قد قد » حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار « هل عرفت القوم؟ » فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلمثون قال « هل تدري ما أرادوا! » قال الله ورسوله أعلم قال « أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحلته فيطرحوه » قال فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال شدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال أربعة عشر رجلا فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الاثنى عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشى الناس في بطن الوادى وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء نفر الأزدلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع اليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرها أن يكتب عليهم ، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحق إلا أنه سمي جماعة منهم فالله أعلم . وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي ويشهد لهذه القصة بالصححة ما رواه مسلم حدثنا زهير ابن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة قال فقال له القوم أخبره إذ سألك فقال كنا نخبز أنهم أربعة عشر فان كست منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان في حرة يمشى فقال إن الماء قليل فلا يسبقني اليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال « في أصحابي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكم الديلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم » ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره والله أعلم ، وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل^(١) بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائى وأوس ابن قيطى والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بني الحلبى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن الصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهروا الاسلام . وقوله تعالى (وما تمموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ « ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله (وما تمموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) الآية وقوله عليه السلام « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله » ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال (فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعدنهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) أى وان يستمروا على طريقهم يعدنهم الله عذابا أليما في الدنيا أى بالقتل والمهم والغم والآخرة أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار (وما لهم في الأرض من ولى ولا نصير) أى وليس لهم أحديسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ * فَلَمَّا ءَاتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهِۦ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ * فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِىۡ قُلُوْبِهِمْۙ اِلَىۡ يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗۙ بِمَاۙ اَخْلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُۙ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ * اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَعْۡلَمُۙ سِرَّهُمْۙ وَنَجْوَاهُمْۙ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلَمُۙ الْغُیُوْبِۙ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين فما وفى بما قال ولا صدق فما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عيادا بالله من ذلك وقد ذكر كثير من المفسرين مهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة

في ثعلبة بن حاطب الأنصاري وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالا ، قال فقال رسول الله ﷺ « ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال ثم قال مرة أخرى فقال « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهابا وفضة لسارت » قال والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال فأنخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضاعت عليه المدينة ففتحنى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ماسواها ، ثم نمت وكثرت فتحنى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة فظفقت يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا يا رسول الله انخذ غنما فضاعت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال « يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة » وأنزل الله جل ثناؤه (خذ من أموالهم صدقة) الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جيبنة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما « مرا بثعلبة وبفلان رجل من بني سليم - فخذنا صدقاتهما » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما تريد أن تأخذ هذا منك . فقال بلى فخذوها فان نسي بذلك طيبة وإنما هي له ، فأخذها منه ومرا على الناس فأخذنا الصدقات ثم رحنا إلى ثعلبة فقال ، أروني كتابك اقرأه فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأى فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحشو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ « هذا عملك قد أمرتكم فلم تطعني » فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلي من رسول الله وموضعي من الأنصار فأقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك فقبض ولم يقبلها فلما ولي عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان ، وقوله تعالى (بما أخلفوا الله ما وعده) الآية أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كافي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية النفاق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤمن خان » وله شواهد كثيرة والله أعلم . وقوله (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) الآية يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما باطن

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مرء وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغني عن صدقة هذا ، كما روى البخاري حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو النعمان البصري حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل (١) على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرأى وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت (الذين يلزمون المطوعين) الآية . وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد الجريري عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال فحللت من عماتي لوثا أولوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعدت على عماتي . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا ولا أصغر منه ولا أذم يبيع ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال « نعم » قال دونك هذه الناقة قال فلزمه رجل فقال هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه . قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب المثين من الإبل » ثلاثا قالوا إلامن يا رسول الله ؟ قال « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال « قد أفلح المزهد المجهد » ثلاثا . المزهد في العيش المجهد في العبادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله الغنيان عن هذا الصاع . وقال العوفي عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يا رسول الله هذا صاع من تمرت ليلتي أجر بالجرير المساء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ « لم يبق أحد غيرك » فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات فقال له عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمجنون أنت ؟ قال ليس بي جنون قال أفعلت ما فعلت ؟ قال نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فبي فقال له رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعا فأزل الله عز وجل عنده وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه (الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدى أخو بني العجلان وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر فلزموها وقالوا ما هذا إلا رياء وكان الذي تصدق بمجهده أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأقرغه في الصدقة فتضحكوا به وقالوا إن لغني عن صاع أبي عقيل وقال الحافظ أبو بكر البراق حدثنا طالت بن عباد حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تصدقوا فإنني أريد أن أبعث بعثا » قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله عندي أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربي وألفين لعالي فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أعطيت

(١) أي تواجر أنفسا في الحل ، وفي رواية عنده في التفسير تتحامل أي يحمل بعضا لبعض بالأجرة .

وبارك لك فيما أمسكت « وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي قال فلمزه المنافقون وقالوا ما أعطى النبي أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأزل الله (الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) الآية ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه مرسلًا قال ولم يسنده أحد إلا طالوت ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر فانتقلت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أقرب إلى رسول الله ﷺ فأثبته فأخبرته فقال « انثره في الصدقة » قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين فأزل الله (الذين يلزمون المطوعين) الآيتين ، وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب به وقال اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارا للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا ألما لأن الجزء من جنس العمل

﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسبا لمادة الاستغفار لهم لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) الآية . وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال « بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان » ، فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصل على عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال « إن الله قال (إن تستغفر لهم سبعين مرة) ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين » وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيد

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِيفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين التخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه (وكرهوا أن يجاهدوا) معه (بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا) أي بعضهم لبعض (لا تنفروا في الحر) وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهمذا قالوا (لا تنفروا في الحر) قال الله تعالى لرسوله ﷺ (قل) لهم (نار جهنم) التي تصيرون إليها بمخالفتكم (أشد حرا) مما فررت منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نار بنى آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال

« فضت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به ، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ماجعل الله فيها منفعة لأحد » وهذا أيضاً إسناده صحيح ، وقد روى الإمام أبو يعقوب الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس الدورى ، وعن يحيى بن أبى بكير عن شريك عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم » ثم قال الترمذى لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى . كذا قال ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبدالله النخعى به ، وروى أيضاً ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ناراً وقودها الناس والحجارة) قال « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء كالليل لا يضيء لها ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث تمام بن نجيح وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه « لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب » وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحق بن أبى إسرائيل عن أبى عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبى وحشية عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه » غريب وقال الأعمش عن أبى إسحق عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرحل لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً » أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش ، وقال مسلم أيضاً حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يحيى بن أبى كثير حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبى صالح عن النعمان بن أبى عياش عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بئعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن ابن عجلان سمعت أبى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه » وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم ، والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة ، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) وقال تعالى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهره ما فى بطونهم والجلود ولحم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصيبهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا

ولكنهم كما قال الآخر * كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال الآخر * عمرك بالحمة أفنيت * خوفاً من البارد والحر

وكان أولى لك أن تتقى * من المعاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا (فليضحكوا قليلاً) الآية قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس الدنيا قليل فليضحكوا فيها ماشاءوا فإذا انقطع الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأثفوا بكاء لا ينقطع أبداً ، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقبلى وزيد بن أسلم ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خدش حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن يزيد حدثنا يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتبأ كوا فان أهل النار سيكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء

فتفرح العيون فلو أن سفناً أزعجت فيها لجرت « ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به ، وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن العباس حدثنا حماد الجزري عن زيد بن رفيع رفعه قال إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً قال فتقول لهم الحزنة يامعشر الأشقياء تركتم البكاء في النار للرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يامعشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشا وكنا طول الموقف عطاشا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو يمارزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ثم يجيبهم (إنكم ما كنون) فيأسون من كل خير »

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام (فإن رجعت الله) أي ردك الله من غزوتك هذه (إلى طائفة منهم) قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً (فاستأذنوك للخروج) أي معك إلى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) أي تعزيرا لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله (إنكم رضيتم بالقيود أول مرة) وهذا كقوله تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله في عمرة الحديبية (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) الآية . وقوله تعالى (فاقعدوا مع الخالفين) قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة : وقال قتادة (فاقعدوا مع الخالفين) أي مع النساء ، قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالقات ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسمايل عن أبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قبضه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما خيرني الله فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين » قال إنه مناقق . قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل آية (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة حماد بن أسامة به ، ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به ، وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا فقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت يا رسول الله أظن الله عدو الله عبد الله بن

أبي القائل يوم كذا وكذا - يعدد أيامه - ، قال ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا كثرت عليه قال « أخرعني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ، قد قيل لي (استغفر لهم) الآية . لو أعلم أني لوزدت على السبعين غفر له لزدت » قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن إسحق عن الزهري به وقال حسن صحيح ، ورواه البخاري عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهري به فذكر مثله وقال « أخرعني يا عمر » فلما أكرت عليه قال « إني خيرت فاخترت ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) الآية فجعلت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبد الملك عن ابن الزبير عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبي أيوب النسيبي فقال يا رسول الله إنك إن لم تأتته لم نزل نعيير بهذا فأثأه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرة فقال « أفلا قبل أن تدخلوه ، » فأخرج من حفرة وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه ؛ ورواه النسائي عن أبي داود الحراني عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبي سلمان به ؛ وقال البخاري حدثنا عبد الله بن عثمان خيرا بن عينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال : أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم

وقد رواه أيضاً في غير موضع مسلم والنسائي من غير وجه عن سفیان بن عيينة به . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق البزار في مسنده حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى حدثنا مجالد حدثنا عمر حدثنا جابر بن وحيدنا يوسف بن موسى حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أبي أوصى أن يكفن بقميصك وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء قال يحيى في حديثه فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزله الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وزاد عبد الرحمن : وخلع النبي ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره فأثأه جبريل عليه السلام لما ولي قال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وإسناده لا بأس به وما قبله شاهد له

وقال الإمام أبو جعفر الطبري حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا أبو أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن زيد الرقاشي عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بثوبه وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث زيد الرقاشي وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم « أهلكك حب يهود » قال يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبنني ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزله الله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية ، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي لأنه كان ضحما طويلا ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فوالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن أبيه حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أئني عليها خيرا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل

عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة . وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فرزه حذيفة كأنه أراد أن يصد عنه الصلاة عليها . ثم حكى عن بعضهم أن المرزبلغة أدل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع ، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال « أصغرهما مثل أحد » وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى أخبرنا هشام عن عبد الله بن محير عن هانىء وهو أبو سعيد البريرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » انفرد بأخراجه أبو داود رحمه الله

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة والله الحمد والمنه

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَوْلَاؤُا الطُّوَلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا واذما للمتخلفين عن الجهاد النا كلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنو الرسول فى القعود وقالوا (ذرنا نكن مع القاعدى) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبن شىء وكما قال الشاعر

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة
وفى الحرب أشباه النساء الفوارك ؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) الآية ، وقوله (وطبع على قلوبهم) أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله (فهم لا يفقهون) أى لا يفهمون مافيه صلاح لهم فيفعلوه ولا مافيه مضرة لهم فيجتنبوه

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين ومالهم فى آخرتهم فقال (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا) إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله (وأولئك لهم الخيرات) أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبيّنون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس إنه كان يقرأ (وجاء العذرون) بالتخفيف ويقول هم أهل العذر . وكذا روى ابن عينة عن حميد عن مجاهد سواء قال ابن إسحق وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار خفاف بن إيماء بن رخصة وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية لأنه قال بعد هذا (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى لم يأتوا فيعتذروا ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وجاء العذرون من الأعراب) قال نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحق والقول الأول أظهر والله أعلم لما قدمنا من قوله بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد آخرون من الأعراب عن الهجره للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَجْمَلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمَلِكُمْ عَلَيْهِ تَوْلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاكُمْ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يبتطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ولهذا قال (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله؟ قال النبي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا ، وقال الأوزاعي خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر الستم مقرين بالاساءة؟ قالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا نسئلك تقول (ما على المحسنين من سبيل) اللهم وقد أقررنا بالاساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقال قتادة نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني حدثنا ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة فأني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت (ليس على الضعفاء) الآية وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا يا رسول الله احمنا فقال لهم « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا سخلا . فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال (ليس على الضعفاء) إلى قوله (فهم لا يعلمون) وقال مجاهد في قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت في بنى مقرن من مزينة ، وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ومن بنى واقف حرمي بن عمرو ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى فضل الله ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة وعبد الله بن عمرو المزني ، وقال محمد بن إسحق في سياق غزوة تبوك ثم إن رجلا من

الساميين أنوا رسول الله ﷺ وهم البكاعون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف سالم ابن عمير وعليه بن زيد أخو بني حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار وعمرو بن الحمام بن الجوح أخو بني سلمة وعبد الله بن المغفل المزني وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني وحرى بن عبد الله أخو بني واقف وعياض بن سارية الفزاري فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال (لا أجد ما أحملك عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن الأودي حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقت من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتهم من عدو نبلا إلا وقد شركوكم في الأجر » ثم قرأ (ولا على الدين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملك عليه) الآية ، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتهم سيرا إلا وهم معكم » قالوا وهم بالمدينة ؟ قال « نعم حبسهم العذر » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينة رجلا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض » ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى اللامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالم في الرجال (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)

﴿ يَتَذَرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم (قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم) أى لن صدقكم (قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أعلمنا الله أحوالكم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها ويجزيكم عليها ثم أخبر عنهم أنهم سيخلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم إنهم رجس أى خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أى من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بخلفهم لهم (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الفسق هو الخروج ومنه سميت الفارة فويسقة لخروجها من جحرها للافساد ، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَٰهَ إِلَّا هِيَ قُرْبَةٌ لَّهُمْ سِيِّئٌ خَلْفَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر أى

أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي والله إن حديثك ليحجني ، وإن يدك لتريني . فقال زيد ما يريك من يدي إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد بن صوحان : صدق الله (الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى ، قال « لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن فهم أطفأ أخلاقا من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء . (حديث الأعرابي في تقييل الولد) قال حديث مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قال حدثنا أبو أسامة وابن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أقتلون صيانتكم ؟ قالوا نعم قالوا لكننا والله ما تقبل فقال رسول الله ﷺ « وأملك (١) إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقال ابن عمير « من قلبك الرحمة » وقوله (والله علم حكيم) أى عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق لا يستل عما يفعل لعلمه وحكمته ، وأخبر تعالى أن منهم (من يتخذ ما ينفق) أى فى سبيل الله (مغرمًا) أى غرامة وخسارة (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظر بكم الحوادث والآفات (عليهم دائرة السوء) أى هى منعكسه عليهم والسوء دائر عليهم (والله سميع عليم) أى سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ، وقوله (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) هذا هو القسم المدوح من الأعراب وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربات يتقربون بها عند الله ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم (ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن ذلك حاصل لهم (سيد خلمهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحدن وقتادة هم الذين صلوا إلى القبليتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية ، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال أبى بن كعب فقال لانفارقنى حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبى تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) وفى سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم) الآية وفى الأنفال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم) الآية رواه ابن جرير قال وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرأها برفع الأنصار عطف على والسابقون الأولون ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) وفى البخارى أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة

ياحسان : فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعهد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه فان الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم . عياذا بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فانهم يترضون عمن رضى الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون

﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَتَعْلَمُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة أيضا منافقون (مردوا على النفاق) أى مروا واستمروا عليه ومنه يقال شيطان مريد ومارد ويقال تورد فلان على الله أى عتا وتجبر ، وقوله (لا تعلمهم نحن نعلمهم) لاينا في قوله تعالى (ولو نشاء لأرينا لكم فلعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا وإن كان يراه صباحا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في حجر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال « إن في أصحابي منافقين » ومعناه أنه قد ييوج بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله (وهموا بما لم ينالوا) أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشرة أو خمسة عشر منافقا وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم ، وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتى من طريق هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه : والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل له لسانا ذا كرا ، وقلبا شا كرا ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصير أمره إلى خير » فقال يا رسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنيت رؤسافهم أفلا أتيتك بهم ؟ قال « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على احد ستر » قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية أنه قال ما بال أقوام يتسكفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار فاذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك ، قال نبي الله نوح عليه السلام (وما علمى بما كانوا يعملون) وقال نبي الله شعيب عليه السلام (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (لا تعلمهم نحن نعلمهم) وقال السدى عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يا فلان فإنك منافق ، وأخرج يا فلان فانك منافق » فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختابا منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فصح الله المنافقين اليوم : قال ابن عباس فهذا

العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا ، وقال مجاهد في قوله (سنعذبهم مرتين) يعنى القتل والسبي ، وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصرى عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد وقرأ قوله تعالى (فلا نعذبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار (ثم يردون إلى عذاب عظيم) قال النار ، وقال محمد بن إسحاق (سنعذبهم مرتين) قال هو فيها بلغنى ما هم فيه من أمر الاسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذى يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه ، وقال سعيد عن قتادة في قوله (سنعذبهم مرتين) عذاب الدنيا وعذاب القبر (ثم يردون إلى عذاب عظيم) وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة بائى عشر رجلا من المنافقين فقال ستة منهم تكفيمهم الديلة سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره ، وستة يموتون موتا . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أنهم أنا ؟ قال لا ولا أومن منها أحدا بعدك

﴿ وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديها وشكا شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أى أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك وهؤلاء سحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين للمؤمنين ، وقد قال مجاهد إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبنى قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس (وآخرون) نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل وسبعة معه ، وقيل وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يجاهدوا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أنزل الله هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، وقال البخارى حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا « أتانى الليلة آتيان فابتعثاني فأتيتني إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقتنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأفبح ما أنت راء قالوا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالوا إلى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فاتهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » هكذا رواه البخارى مختصرا في تفسير هذه الآية

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا احتجوا بقوله

تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤديونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : والله لو منعوني عنقا - وفي رواية عقلا - كانوا يؤديونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلهم على منعه ، وقوله (وصل عليهم) أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبي أوفى » وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت يا رسول الله صل على وطي زوجي فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله (إن صلاتك سكن لهم) قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الافراد (سكن لهم) قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة وقار ، وقوله (والله سميع) أى لدعائك (عليهم) أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو العميس عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحيفة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده وولد ولده ، ثم رواه عن أبي نعيم عن مسعر عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحيفة قال مسعر وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولده . وقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها يمينه فيربها لصاحبها حتى تصير النمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثوري وكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيربها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقوله (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقال الثوري والأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبي قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ثم قرأ هذه الآية (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقد روى ابن عساکر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقي وأصله حمصي وكان أحد الفقهاء روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصي قال غزا الناس في زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خاله بن الوليد فعل رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم وأنى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرى الصحابة فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له أو مطيعي أنت ؟ فقال نعم ، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل مني خمسمائة فادفع اليه عشرين دينارا وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسماهم ومكانهم ، ففعل الرجل فقال معاوية رضى الله عنه لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شيء أملكه ، أحسن الرجل

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ وَعَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين وأمره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين وهذا كائن لا محالة يوم القامة كما قال (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقال تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال (وحصل ما فى الصدور) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كأننا ما كان » وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الصلت ابن دينار عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم فإن كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألمهمهم أن يعملوا بطاعتك ، وقال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع أنسأ يقول : قال النبي ﷺ « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمهم حتى تهديهم كما هديتنا » وقال البخاري قالت عائشة رضی الله عنها : إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقد ورد في الحديث شبيه بهذا قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بهم بختم له ، فإن العامل يعمل زمانا من عمره أو برهة من دهره يعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيئا ، وإن العبد يعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحا ، وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله قبل موته » قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِرَأْمِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أى عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب التمار والظلال لا شكا ونفاقا فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهى قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) الآية كما سيأتى بيانه في حديث كعب بن مالك ، وقوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذلك ، ولكن رحمته تغلب غضبه (والله عليم حكيم) أى عليم بمن يستحق العقوبة بمن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق العين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن واقفهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيها بين الصفيين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت ربايعته النبي السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم

واستألمهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك علينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فثأله هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدم ويمينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأبى إليهم فيصلى في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بنجر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فأبى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأبى بجنود من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل (لا تقم فيه أبدا) إلى قوله (الظالمين) وكذا روى عن سعيد بن جبيرة ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم قالوا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني من تبوك حتى نزل بنى أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لدى العلة والحاحة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال « إني على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ « ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بنى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدى أو أخاه عامر بن عدى أخا بلعجلان فقال « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاها » فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن أنظرنى أخرج إليك بنار من أهلى فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاها وهدمها وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين أخذوا مسجدا ضارا وكفرا) إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، ، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وموالى بني أمية بن زيد ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف وحارثة بن عامر وابناه جمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبث الحارث وهم من بني ضبيعة ومخرج وهم من بني ضبيعة ويحاذ بن عمران وهو من بني ضبيعة ووديع بن ثابت وموالى بني أمية رهط أنى لبابة بن عبد المنذر . وقوله (وليحلفن) أى الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أى ما أردنا بيناها إلا خيرا ورققا بالناس قال الله تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون) أى فيما قصدوا وفيما نوا وإمما بنوه ضارا لمسجد قباء وكفرا بالله وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له الراهب لعنه الله ، وقوله (لا تقم فيه أبدا) نهى له صلى الله عليه

وسلم والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبدأ . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموثلا للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاه في مسجد قباء كعمرة » وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكبا وماشيا ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدمه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة فالله أعلم

وقال أبو داود حدثنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال - كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية » . ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف ، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه ، وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن على العمري حدثنا محمد بن حميد الرازى حدثنا سامة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال « ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم » فقال يارسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرحه أو قال مقعدته فقال النبي ﷺ « هو هذا » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن محمد حدثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى أنه حدثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ » فقالوا والله يارسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة « ما هذا الذى أثنى الله عليكم (فيه رجال يحبون أن يتطهروا ؟) » الآية قالوا يارسول الله إنا نغسل الأديبار بالماء ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن عمار الأسدى حدثنا محمد ابن سعد عن إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) والله يحب المطهرين (قال كانوا يغسلون أديبارهم من الغائط

(حديث آخر) قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك يعنى ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : تقدم قدم رسول الله ﷺ يعنى قباء فقال « إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ » يعنى قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) فقالوا يارسول الله إنا نجد مكتوبا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبى والحسن البصرى ونقله البغوى عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى في جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب أن النبي ﷺ قال « المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا » تفرد به أحمد

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما

هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر هو مسجد قباء ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال « هو مسجدي هذا » تفرد به أحمد أيضا .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدري قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال أحدهما هو مسجد قباء ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدي هذا » تفرد به أحمد (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا ليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدي » وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذي ورواه مسلم كما سيأتي .

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى حدثني أبي قال سمعت أبا سعيد الخدري قال : اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال « هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في ذلك يعنى مسجد قباء . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن أنيس قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حميد الخراط المدني سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول (١) في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فقال إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت يا رسول الله : أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدم هذا » ثم قال سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به ، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به ، وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير ، وقوله (مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على أسباغ الوضوء والتزهد عن ملابس القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شيبدا أباروح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال « إنه يلبس علينا القرآن إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبي روح من ذى الكلاع أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكره فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وقال أبو العالية في قوله تعالى (والله يحب المطهرين) إن الطهور بالماء الحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروى من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء « قد أثنى الله عليكم في الطهور فماذا تصنعون ! » فقالوا تستنجى بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا أحمد بن محمد بن عبدالعزيز قال : وجدته في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نتبع الحجارة بالماء . رواه البزار ، ثم قال تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يرو عنه سوى ابنه (قلت) وإنما ذكرته بهذا

(١) في مسلم : يذكر .

اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم والله أعلم .

﴿ أَمَّنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فانما يبنى هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أى طرف حفيرة مثاله (فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله رأيت المسجد الذى بنى ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ابن جرير ذكر لنا أن رجلا حفروا فوجدوا الدخان الذى يخرج منه . وكذا قال قتادة وقال خلف بن ياسين الكوفي رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة ، رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى شكها ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورتهم نفاقا فى قلوبهم كما أشرب عابدين العجل حبه ، وقوله (إلا أن تقطع قلوبهم) أى يموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف (والله عليم أى بأعمال خلقه) فى مجازاتهم عنها من خير وشر

﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا فى سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده الطيعين له . ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية مامن مسلم إلا والله عزوجل فى عنقه بيعة وفى بها أومات عليها ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد وفى به . وقال محمد بن كعب القرظى وغيره قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ليلة العقبة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال « الجنة » قالوا ربح البيع لا تقبل ولا نستقبل ، فنزلت (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية وقوله (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) أى سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرج إلا جهاد فى سبيله وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أحر أو غنيمة » وقوله (وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسوله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى . والإنجيل المنزلة على عيسى . والقرآن المنزلة على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله (ومن أوفى بعهد من الله) فإنه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله (ومن أصدق من الله حديثا) (ومن أصدق من الله قولا) ولهذا قال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو

الفوز العظيم) أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والتعظيم .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّا كِعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والحلال الجليلة (التائبون) من الذنوب كلها التاركون للفواحش (العابدون) أى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهى الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد فلها قال (الحامدون) ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك اللذات من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال (السائحون) كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى (سائحات) أى صائمات وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال (الراكعون الساجدون) وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله فى تحليله وحرمة عما وعملا ققاموا بعبادة الحق ونصح الخلق لهذا قال (وبشر المؤمنين) لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

﴿ بيان أن المراد بالسياحة الصيام ﴾ قال سفيان الثورى عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال (السائحون) الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعمري عن ابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة هم الصائمون وكذا قال الضحاك رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضى الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السامى والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم أن المراد بالسائحين الصائمون ، وقال الحسن البصرى (السائحون) الصائمون شهر رمضان وقال أبو عمرو العبدى (السائحون) الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا حكيم بن حزام حدثنا سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السائحون هم الصائمون » وهذا الموقوف أصح وقال أيضا حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال « هم الصائمون » وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبي ﷺ « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة أخبرنى عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف » وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون رواها ابن أبى حاتم وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهد الجبال والكهوف والبرارى فان هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وقال العمري وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (والحافظون لحدود الله) قال القاسمون بطاعة الله وكذا قال الحسن البصرى وعنه رواية (الحافظون لحدود الله) قال لفرائض الله وفى رواية القاسمون على أمر الله

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن السبب عن أبيه قال لما حضرت أنا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال « أي عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فقال أنا على ملة عبدالمطلب فقال النبي ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قال ونزلت فيه (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) أخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم أخبرنا سفيان عن أبي إسحق عن أبي الخليل عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وها مشركان فقلت أيستغفر الرجل لأبويه وها مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ . فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية قال لما مات فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث لما مات قلت : هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا زيد بن الحارث الياحي عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راك فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تدرقان فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال « إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناى رحمة لها من النار وإني كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً . ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأثربة في الأوعية فاشربوا في أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً » وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . قال « إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي » فما رأتى باكياً أكثر من يومئذ . وقال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا خالد بن خداح حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانيء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فبجاء حتى جلس إلى قبر منها فناداه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال « ما أبكاكم ؟ » فقلنا بكينا لبكائك . قال « إن القبر الذى جلست عنده قبر أمية وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي » ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه . وفيه « وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل على (ما كان للنبي والذين آمنوا) الآية . فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد : وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكر الآخرة »

(حديث آخر) في معناه قال الطبرانى : حدثنا محمد بن علي بن المروزي حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه : أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه فنادى ربه طويلاً ثم إنه بكى فاشتد بكاءه وبكى هو لاء لبكائه وقالوا ما بكى نبى الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه فلما بكى هو لاء قام فرجع إليهم فقال « ما يبكيكم ؟ » قالوا يا نبى الله بكينا لبكائك فقلنا لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه ، قال « لا ، وقد كان بعضه ولكن نزلت على قبر أمي فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لي فرحمتها وهى أمي فكيت ثم جاءنى جبريل فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمتها وهى أمي

ودعوت ربي أن يرفع عن أمي أربعا فرجع عنهم اثنتين وأني أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والفرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيئا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فرجع الله عنهم الرجم من السماء والفرق من الأرض وأني الله أن يرفع عنهم القتل والمهراج » وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كدباء وكانت عسفان لهم ، وهذا حديث غريب وسياق عجيب وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت ، وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون : إن الله أحيا له أباه وأمه فأمنتا به . وقد قال الحافظ بن دحية : هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) وقال أبو عبد الله القرطبي : إن مقتضى هذا الحديث ورد على ابن دحية في هذا الاستدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلى على العصر قال الطحاوي وهو حديث ثابت يعني حديث الشمس قال القرطبي فليس إحياءهما يتمتع عقلا ولا شرعا قال وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فأمن به (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه والله أعلم . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك فقال « إن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لأبيه » فأنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) الآية ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية وقال قتادة في الآية ذكر لنا أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله إن من آباءنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالدم أفلا نستغفر لهم ؟ قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بلى والله إنني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) حتى بلغ قوله (الجحيم) ثم عذرت الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « قد أوحى الله إلي كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي : أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركا ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفار » وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه فذكر ذلك لابن عباس فقال فكان ينبغي له أن يمسي معه ويدفنه ويدعو له بالصالح مادام حيا فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه - إلى قوله - تبرأ منه) لم يدع . ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه ، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات قال « اذهب فواره ولا تحدثن شيئا حتى تأتيني » فذكر تمام الحديث ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال « وصلتك رحمة يا عم » وقال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلي من الزنا لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين يقول الله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية

وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن رامل عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه قلت ولأبيه قال لا . قال إن أبي مات مشركا ، وقوله (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) قال ابن عباس ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتدة وغيرهم رحمهم الله وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير إنه تبرأ منه يوم القيامة حين يلتقي أباه وعلى وجه أبيه القفرة والعبرة فيقول يا إبراهيم إنني كنت أعصيك وإني اليوم لأعصيك فيقول أي ربي ألم تعدني أن لا تحزنني يوم يبعثون ، فأخزي أخزي من أبي الأبعد فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بديع متلطخ أي قد مسخ ضبا ثم يسحب بقوامه ويلقى في النار . وقوله (إن إبراهيم لأواه حلیم) قال سفيان الثوري وغير واحد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبیش عن عبد الله بن مسعود أنه قال الأوام الدعاء وكذا روى من غير وجه عن ابن مسعود وقال ابن جرير

حدثني الثني حدثنا الحجاج بن منهال حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال بينا النبي ﷺ جالس قال رجل يا رسول الله ما الأواه؟ قال « المتضرع » قال (إن إبراهيم لأواه حلیم) ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء . وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي الغدير أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم ، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شر حبيب والحسن البصري وقتادة وغيرهما أنه أي الرحيم أي بعباد الله . وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال الأواه الموقن بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس الأواه المؤمن زاد علي بن أبي طلحة عنه هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة

وقال الإمام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لبيعة عن الحارث بن يزيد عن طي بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين « إنه أواه » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبي الأواه المسيح وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه ، وقال شفي ابن ماتع عن أبي أيوب الأواه الذي إذا ذكر خطاياها استغفر منها ، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الرجل يذنب الذنب سرأثم يتوب منه سرا ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا الحارثي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن بيان أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواه » وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا ابن هانيء حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا فقال « رحمك الله إن كنت لأواها » يعني تلاء للقرآن ، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلي قال سمعت رجلا بكلمة وكان أصله روميا وكان قاصا يحدث عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه أوه أوه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواه » قال فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . هذا حديث غريب رواه ابن جرير . وروى عن كعب الأحبار أنه قال سمعت (إن إبراهيم لأواه) قال كان إذا ذكر النار قال أوه من النار وقال ابن جريج عن ابن عباس (إن إبراهيم لأواه) قال فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أباه وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حلما عن ظلمه وأثاله مكروها ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجنك واهجرني مليا) قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيا) فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ولهذا قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حلیم)

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْئَلَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى (وأما عمود فهديناهم) الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) الآية قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وفي بيانه لهم مصيئته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا . وقال ابن جرير يقول الله تعالى وما كان الله ليقتضى عليكم في استغفاركم لموتاكم الشركين بالضلال بعد إذا رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتكروا فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تعدوا نهيهم إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من الأمور

والنهي ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وقوله تعالى (إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالك من دون الله من ولي ولا نصير) قال ابن جرير هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر وأنهم يشقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواء وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينا رسول الله صلى الله عليه بين أصحابه إذا قال لهم « هل تسمعون ما أسمع؟ » قالوا ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام أن تثط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وقال كعب الأحبار ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، قال قتادة خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر طي ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما وكان النفر يتداولون التمرة بينهم بعضها هذا ثم يشرب عليها ثم يمضها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأفضلهم من غزوتهم ، وقال ابن جرير حدثني يونس ابن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع وحتى إن الرجل لينجر بعيره فيعصر فرثه فيشرب به ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عزوجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فقال « تحب ذلك؟ » قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لهاجاوزت العسكر ، وقال ابن جرير في قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أي من النفقة والظهر والزاد والماء (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أي عن الحق ويشك في دين الرسول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للندي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم (ثم تاب عليهم) يقول ثم رزقهم الإنبابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه (إنه بهم رءوف رحيم)

﴿ وَكَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَقْتَهُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنيفة عمي قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك لم

أخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاهما قط إلا في غزاة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكرك في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاه رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز واستقبل عدوا كثيرا فخطب للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصغر فتجهر إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى استمر بالناس الجحد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألقه فعدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن ارتحل فألقهم وليت أني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا بمن عنده الله عز وجل ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يارسول الله برداه والنظر في عطفه فقال معاذ بن جبل : بشبا قلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرتي بثي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمنا زاح عنى الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه النخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويخلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جثت فلما سامت عليه تبسم تبسم الغضب ثم قال لي « تعال » فجثت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا » فقلت يارسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك بصديق تجد على فيه إني لأرجو عقي ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق قعم حتى يقضى الله فيك » فقامت وقام إلى رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا واتم عجزت أن لا تكون اعذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به النخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد فالوا نعم لقيه معك رجلا قالوا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت فمن هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة قال فضيت حين ذكرتهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتعيروا ما حتى

تسكرت لي في نفسى الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبنا فاستكنا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسى أحرك شفقتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريامنه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى فادا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما ردت على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله قال فسكت قال فعدت له فنشده فسكت فعدت له فنشده فسكت فقال الله ورسوله أعلم . قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام بمن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبها فاذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضية فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال فتيمنت به التتور فسجرت به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعزل امرأتك قال فقلت أطلعها أم ماذا أفعل ؟ فقال . بل اعزلها ولا تقربها ، قال وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تسكره أن أخدمه قال « لا ولكن لا يقربك » قالت وإنه والله ما به من حركة إلى شيء وإنه والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن نخدمه قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضائق على الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته أبشر يا كعب بن مالك قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرها واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أوم رسول الله ﷺ وتلقانى الناس فوجا يهنونى بتوبة الله يقولون لهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس حوله فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأتى والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال « لا بل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخير وقلت يا رسول الله إنما نجأتى الله بالصدق وإن من توبتى أن لأحدث إلا صدقا ما بقيت قال فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فما بقى

(قال) وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ

قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) إلى آخر الآيات . قال كعب فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه فان الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فذلك قال الله عز وجل (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا يتخلفنا عن الغزو وإنما هو عمن حلفه واعتذر إليه فقبل منه . هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحب الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب ، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرا قيل إنه خطأ من الزهري فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا والله أعلم . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحو ما من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أى مع سعتها فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أى اصدقوا والزمو الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرا وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » أخرجاه في الصحيحين ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل اقرءوا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة ، وعن عبد الله بن عمرو في قوله (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال مع محمد ﷺ وأصحابه ، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وقال الحسن البصرى إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَنفِطُ الْكُمَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكْتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى التخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من الشقة فانهم تقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم (لا يصيبهم ظمأ) وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخمصة) وهي الحجاعة (ولا يطئون موطئاً يعيظ الكفار) أى ينزلون منزلاً يرهب عدوهم (ولا ينالون) منه ظفراً وغلبة عليه (إلا كتب لهم) بهذه الأعمال التى ليست داخلية تحت قدرهم وإنما هى ناشئة عن أفعالهم أعمالاً سالحة وثواباً جزيلاً (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) كقوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً)

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) أى قليلاً ولا كثيراً (ولا يقطعون وادياً) أى في السير إلى الأعداء (إلا كتب لهم) ولم يقل ههنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا أبو موسى الغنوى حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنى سليمان بن المغيرة حدثنى الوليد بن أبي هشام عن فرقد بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرقة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحرکہا ، وأخرج عبد الصمد يده كالمعجب « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » وقال عبد الله أيضاً حدثنا هارون ابن معروف حدثنا ضمرة حدثنا عبد الله بن شوذب عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان رضى الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال فصبا في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددتها مراراً ، وقال قتادة في قوله تعالى (ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم) الآية ما ازداد قوم في سبيل الله بعدا من أهلهم إلا ازدادوا قربا من الله

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فانه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً) وقال (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) الآية قال فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها وشردمة سن كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقهوا الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران في هذا النفي العين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد فانه فرض كفاية على الأحياء وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً وتركوا النبي ﷺ وحده (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنى عصابة يعنى السرايا ولا يسيروا

إلا بإذنه فاذا رجعت سرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى فذلك قوله (ليتفقهوا في الدين) يقول ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون) وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فاصابوا من الناس معروفا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وحدوا من الناس إلى المهدي فقال الناس لهم مانرا كم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تهرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله عزوجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبعثون الخير (ليتفقهوا في الدين) وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فحذرهم (ولينذروا قومهم) الناس كلهم إذا رجعوا إليهم (لعلهم يحذرون) وقال قتادة في الآية هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه صلى الله عليه وسلم وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قلبهم ، وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه وكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه فاذا رجعت السرية قال لهم الدين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين وهو قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول إذا أقام رسول الله (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ولكن إذا تعد نبي الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس . وقال علي بن أبي طلحة أيضا عن ابن عباس في الآية قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجذبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلو بالمدينة من الجهد ويعتوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائريهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) الآية وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما تأمر به عشائرينا إذا قدمنا عليهم قال فيأمرهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله وبيعهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم فاذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) (وما كان لأهل المدينة) الآية قال المناقبون هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنز الله عزوجل (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية ونزلت (والدين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حجتهم داخضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) وقال الحسن البصري في الآية ليتفقه الدين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين

الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً فاختره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارح الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمّله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلحان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله بركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولى عهده الفاروق الأواب ، شهيد الحراب ، أبى حفص عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة للملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ففرقها على الوجه الشرعى . والسبيل المرضى . ثم لما مات شهيداً وفد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه شهيد الدار . فكسى الإسلام رياسة حلة سابعة . وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) أى وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم فان المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين) وقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا الضحوك القتال » يعنى أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه وقوله (واعلموا أن الله مع المتقين) أى قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم . ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الاسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام والله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله . والله المستول المأمول أن يمكن المسلمين نواصى أعدائه الكافرين وأن يعلى كلهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) من يقول أيكم زادته هذه إيماناً أى يقول بعضهم لبعض ياكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخارى رحمه الله (وأما الذين في قلوبهم مرض

فزادتهم رجساً إلى رجسهم) أى زادتهم شكا إلى شكهم وربيا إلى ريبهم كما قال تعالى (وتنزل من القرآن ما هو شفاء والآية ، وقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالتهم ودمارهم كما أن سبي المزاج لو غدى بما غدى به لا يزيد إلا خبالا ونقصا .

﴿ أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى أولارى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) أى يختبرون (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أى لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فىما يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو فى السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر عن الجعفى عن أبى الضحى عن حذيفة فى قوله (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) قال كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فىصل بها فقام من الناس كثير رواه ابن جرير . وفى الحديث عن أنس : لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحا وما من عام إلا والذى بعده شر منه . سمعته من نبيكم ﷺ وقوله (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ (نظر بعضهم إلى بعض) أى تلفتوا (هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لا يشبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمرة مستنفرة فرت من قسورة) وقوله تعالى (فما للذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين) أى ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا إلى الباطل وقوله (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أى لا يفهمون عن الله خطابه ولا يتصدون لهممه ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى ممثنا على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فىنا رسولا منا يعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأماته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبىه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبى لحدثنى عن أبىه عن جده عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شيء » وقوله تعالى (عزيز عليه ما عنتم) أى يعز عليه الشيء الذى نعمت أمته ويشقى عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن

هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة مريحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه « (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي اليكم ، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبي الطفيل عن أبي ذر قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه ولم وما طائر يقرب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال : وقال رسول الله ﷺ « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » وقال الإمام أحمد : حدثنا قطن حدثنا السعدي عن الحسن بن سعد عن عبدة الهذلي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلبها منكم مطلع ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كهتافت الفراش أو الدباب » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ابن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر اتهموا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فيبنيهم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : أرايتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فقالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا ومنموا فقال لهم ألم ألقمكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا بلى فقال : فان بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لتتبعنني ، وقالت طائفة قدرضينا بهذا نقيم عليه ، وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان حدثنا أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال في دم^(١) فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال « أحسنت إليك » قال الأعرابي لا ولا أجملت فضرب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال « إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت » فزاده رسول الله ﷺ شيئا وقال « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت . وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم » فقال نعم : فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ « إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال ، وإنما قد دعواته فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذلك يا أعرابي ؟ » فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإني لو أظعتكم حيث قال ما قال لدخل النار » رواه البزار ثم قال لانعله يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) كقوله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برى عما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى (فإن تولوا) أى تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (قل حسبي الله لا إله إلا هو) أى الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) (وهو رب العرش العظيم) أى هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف الخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرته الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبى بن كعب

قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون ويحلى عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) الآية فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن ففتح بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا غريب أيضاً ، وقال أحمد حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها في آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر ابن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرم وهم يكتبون ذلك ، وفي الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمه بن ثابت أو أبي خزيمه ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمه بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه (١) ، وقد رواه ابن عساکر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبا زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزارى عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : ما من عبد يقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقا كان بها أو كاذبا إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة والله الحمد والمنة

(تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى (الر) أي أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي هذه آيات القرآن الحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) وقال الحسن التوراة والزبور : وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التي كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه : وقوله (أكان للناس عجبا) الآية . يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون

(١) كذا في الأصول بالاستثناء ولا يظهر إلا في الرواية التالية المبدوءة بالنفي

(٢) يياض بالأصل